

الفصل الأول

﴿ صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴾

محمد والاعاني المعروفة باغاني الاشارات - محمد والتاريخ - اصل
الاعتقاد - الوحي بالقرآن - ليس محمد مبتدعا - هل
كان على الدوام صديقا - وفاته

كنت كلما بحثت في الديانات مع صاحب لي من طلبة العلم في تلمسان
وأراد الهرب من الجدل يجيبني هم يقولون ان لله ولداً وان محمداً لمن
الساحرين اجابة مملوءة بالاحتقار كما يجب المعتقد وثنياً يريد أن يشفق عليه
وذلك مع مبالغته في احترامى وحسن الصلات بيننا وكان يرى ان التثايت
خرافة فادحة كسحر محمد وان المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم
لا ينبغي الجدل معهم ولست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص
القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوال من المسيحيين فجميع
أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان
السبب في الحروب الصليبية وكلها محشوة بالحقده على المسلمين للجهل الكلي
بديانتهم وقد نتج عن تلك الاناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك
الدين ورسوخ تلك الاغلاط في الاذهان ولا يزال بعضها راسخاً الى هذه الايام
فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة اوثان مارقين وقد

جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم ما هووم ويقال ما هووم
وبافوميدي وما هووميدي وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم (أبلين) ثم
(ترفاجان) وذهبوا الى ان محمداً وضع دينه بادعائه الالهوية ومن المستغربات
قولهم ان محمداً الذي هو عدو الاصنام ومبيد الاوثان كان يدعو الناس لعبادته
في صورة وثن من ذهب كما كان يمتقد (الكرلوقنجيون) وان المسلمين
لما غلبهم الافرنج وصدروهم الى اسوار سرقسطه عادوا الى اصنامهم فخطموها
كما طنطن به احد منشدى ذلك العصر حيث قال (وكان ابلين الههم في
مغارة هناك فتراوا عليه واوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه في احد
العمدان وجملوا يدوسونه باقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه
واما (ما هووم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه
وتمشى عليه وتلك اهانة لم تصب الها قبله) ويظهر ان المسلمين لم يلبثوا ان
تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر
الامبراطور كارلوس بابادتها لما دخل سرقسطه كما جاء في قول ذلك الشاعر
(وقد أمر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد
والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها ما هووميدي وجميع الاوثان
والاصنام) وكذلك يقول (ريشار) في أناشيده وهي جميلة لاشيء من
الخراف فيها الا انها زور وبهتان حيث يطالب من الله أن يوقع الفشل العميم
بين (أولئك الذين يعبدون بصورة ما هووم) ثم جعل يحرض الاشراف
على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين) قوموا ونكسوا
صنم ما هووميدي وترفاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم) وذهبوا الى

ان صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الاحجار والمعادن باحكم صنع
وأدق اتقان ومن قرأ وصفه في اناشيد (رولان) كاد يحلف ان ذلك
الشاعر انما يصف عن خبر وعيان يقول وكانت كلها من الذهب والفضة
لو شاهدها لأيقنت بانه لا يمكن للعقل ان يتصور اجل منها عظيمة الشكل
لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب
وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجل
المصنوعات خاوياً من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس
الاحجار المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن
المثال والنظير) ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهزم المسلمون
في احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه قال الراوى
بجاء الاله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضرباً
يسمع له دوى قاصف وبعضهم يعنى بالمزمار والآخر بصفارة من
الفضة والكل حولهم يرقصون ويفنون باعلى أصواتهم واقبلوا به فرحين
حيث المجلس معقود والخليفة الدينى فى انتظاره فلما رآه قام يمجده
بخضوع وخشوع ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة
أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذى وصفه بالتجوير وان لاشئ فى باطنه
الا ويرى من الخارج فقال (وقد وضعوا فى جوفه عفريناً استحضره
السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم للمسلمين وهم يسمعون) ولقد
زاد بغضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامى كما جعلوا
الصليب علامة للدين المسيحى فروى (بودوان) فى نشيده على الكونتيسة

(يونتيو) لما أرادت ان تعتق لاسلام امام صلاح الدين انها قالت (اريد أن أعبد محمداً فاثبتوني به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه) ويأخذ القارى، من نشيد آخر يظهر انه وضع تمة لاناشيد (بودوان) وجود الهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (باراتون) و (جوبين) الا ان الثلاثة الاولين هم الرؤساء ولما رد أحد فواد المسيحيين جيش المسلمين الذى خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين كما يأتى (وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون باعلى اصواتهم يا (ترفاجان) يا (ماهوم) ومع ذلك يوجد نشيد من اناشيد القرون الوسطى لا يرى فيه القارى، رمزاً الى محمد بالصنم وهو للقسيس (اسكندرديون) الفه سنة ١٢٥٨ ميلادية اخذاً عن مسلم تنصر من ذوى الاعتبار وعد الناس تلك القصة تاريخاً صحيحاً عن ذلك النبي وقد جاء فيها (انه من المعلوم ان محمداً كان عالماً بطرق المكر والحياة والخداع) ثم شبهه باحد الامراء المحاط باتباعه ينشر دينه على ابسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة

ولقد أطلنا القول في تلك الاضاليل لان تاريخ (اسكندر) المذكور لم يزلها ولاها تركت أثراً في الاذهان وصل الى اهل هذه الايام وتشبعت به افكارهم في النبي وكتابه

ولو سأل سائل هل كان اولئك المنشدون يعتقدون صحة مايقولون لاجنباه جواب اهل نورمنده لا ونعم اذ من المحقق ان الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدي على حقيقته

ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في اناشيدهم بل حفظ روح
البغضاء في نفوس قومهم فاحتاجوا في ذلك الى وصف المسامين ونبههم
ودينهم بالاوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم
واميالهم واذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من
المؤرخين والمتكلمين (الباحثين في علم التوحيد) الذين يظهر على كتبهم في
ذلك الزمن انهم ميالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك
الاقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسامين وكان المصاحون
(هم البروتستان ايام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحي) أشد تعصباً ضده من
غيرهم فقد اعتنى (بيلياندر) بتشبيه محمد بالشیطان وعاملوا كتابه وشرعه
كعاملوه ولسنا نقيم برهاناً على ما نقول غير توجيه نظر القارىء الى
مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب (ريلان) الذي ألفه سنة ١٧٢١ تحت
عنوان (ما هو السبب في ان الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية
الاشيئاً سيراً) حيث يقول (لو اراد الباحثون ان يصموا مذهباً او
طريقه بوصمة الخزي والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدى او
طريقة محمدية وهكذا) وألف القس (دون مارتينو الفرنسويقالدو)
كتاباً سماه سراج الكنيسة المقدسة الذهبي جاء فيه (ان كتاب محمد
لا تلزم قراءته بل يجب ان يسخر به وان يحتقر ويرمى في النار اثنى وجد
ولا يليق ان يحفظه الناس لانه عمل بهيمى) وبمضمون كان لا يقول بحرقه
ولكنه يرى (من العبث ان يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ
هزئيات وأورد تافهة منشأها خيالات شخص اختل عقله واضطربت قواه)

وأما المسلمون فمن أسماهم في تلك الكتب البلدة والكسالى والحخير
والحخير الوحشية والممقوتون الذين يملأون المنزل بالنساء في الليل ويطلقونهن
في النهار ولو اردت الاطلاع على جمعة الشتائم والسباب فعليك بكتاب الفه
احد اليسوعيين وهو (پروشار) وسماه مرشد السياحه وقدمه الى الامير
(فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢ وذكرفيه الاسباب التي تحمله على الدعوى
الى حرب صليبية فقال (من ذا الذي لا يزرف عبرات الدمع عند ما يعلم
أبي الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع التي هي ميراثنا أولئك قوم
لا رب لهم ولا دين يهديهم ولا شرع يرجعون اليه ولا عهد ولا حنان
أولئك قوم اخساء ادنياء وهم اعداء لكل حقيقة في الوجود وكل صفاء
وكل خير وكل عدل أولئك هم اعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون
للمسيحيين المفرطون في نسايم الفاسقون بالاطفال الظالمون لعجم
الحيوانات المخالفون لطبائع البشر القتالون للفضائل المميتون للاخلاق
الغارقون في القبائح والخطايا أولئك هم اولياء الشيطان وانصار الدنيا ذوو
حمد وبغض ذوو افكار سافلة واعمال سخيفة وعيشة دنيسة وأقوال بدئية
وعشرة سوء معدية لا تنصرف ارادتهم ولا تتجه همهم الا الى اللذائذ البهيمية
والمعيشة الهمجية أولئك هم القوم الذين ابعدوننا عن هاتيك البقاع وأذوونا
في هذه البقعة الصغيرة التي نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بدينا أولئك
هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التي هي مهبط شرعنا
ولو ثوا اماكنها المقدسة المطهرة)

ولم يزل هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى ان المستشرق

(بريدو) الانكليزي الف سنة ١٧٣٣ كتاباً في سيرة النبي عنوانه (حياة
ذى البدع محمد) وترجمه بعضهم الى لغتنا وجعل له مقدمة بين
فيها مقصد المؤلف فقال (ان غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة
المقصد المسيحي الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد) أولئك
كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم ارادوا خدمة المقصد المسيحي
الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم
ان يشبهوا خصمهم سباً وشتماً وان يحرفوا في النقل مهما استطاعوا
واراد (داماسين) ان يخالفهم في التأليف لكونه تربى في دمشق الشام
وكان مقرباً عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك
عده بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة (اريوس) ومع ذلك فلم
تؤثر عبارته في رأى الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه
وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائماً في تأييدها وتمكينها من الازهان
وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزأون بالدين الاسلامي واغنت الباباوات
عن حربه حرباً صحيحاً فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن
مشتغلة بامور أخرى لان الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين
هما احزاب النفس الواحدة في جسدين واحزاب النفس في جسم واحد
ولم يبدأ في البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع الأ في زمننا
هذا في القرن التاسع عشر اخذ الباحثون ينظرون الى المسئلة نظر الناقد
البصير وكان من وراء ذلك ان افترق الناس في القرآن الى معجب به وطاقن
فيه ومع ذلك لا تزال نرى في لسان هذا القسم الاخير ما تشم منه رائحة

تأثرهم بالأفكار الماضية قال موسيو (دروختي) في سياحته في بلاد العرب التي نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبي (انه عربي خان دنى) وقد نسي ان هذه الالفاظ التي يشتمز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى وأول ما دار البحث فيه مسألة صدق النبي في رسالته وقد قلنا ان ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ومعلوم انه لا ارتباط بين هذه المسئلة وبين كون القرآن كتاباً منزلاً ولسنا نحتاج في اثبات صدق النبي الى اكثر من اثبات انه كان مقتنعاً بصحة رسالته وحقيقة نبوته اما الغرض من تلك الرسالة في الاصل فهو اقامة اله واحد مقام عبادة الاوثان التي كانت عليها قبيلته مدة ظهوره وبيان ذلك ان اسماعيل لما حنقت عليه ساره وطرده من عائلة ابيه توجه الى بلاد العرب ونقل اليها ديانة ابيه ابراهيم الا انه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شىء قليل يشبه الخيال اذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بان رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكاً كما حصل ذلك لبني اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئاً فشيئاً وتحل محله عبادة الآلهة التي كانت معروفة في أمم أخرى حتى تنوسى دين اسماعيل تماماً ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تلاق في تلك البقاع حتى ان (تيت) فس بصره اعترف في القرن الرابع بان معيشة العرب الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة في بحيت جزيرة العرب .

تلك هي حالة الدين ببلاد العرب الى قرن السابع وقد بحث فيها الكتاب كل على حسب امياله وكما اعتقد لذلك تناقضت اقوالهم

في اعتبارها والحكم على اهلها فقال موسيو (رونان) لا يوجد في تاريخ التمدن كله صورة اجمل من حالة بلاد العرب قبل الاسلام ومن رآيه ان القبائل في تلك البقاع كانت تدين باليهودية أو بالدين المسيحي وكانت مشتغلة بحركة دينية عظيمة وقال موسيو (بارتيلي سانت هيلير) لوصح أن أولئك الاقوام كانوا على جانب عظيم من التمدن كما يدعون لما احتاجوا الى تلك التعاليم الادبية التي تقشع ابدنا لسماعها (حرمت عليكم اهلها تكلم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت) ومن رأى هذا المؤانف ان العرب كانت أمة متبربرة في حالة من التوحش تقرب من حالة العبرانيين ايام بعث فيهم موسى بمثل ما تقدم من التحاريم. ولست أريد الخوض في ترجيح أحد الرائيين ولكني أرى ان التوسط في الامر اقرب الى الصواب وان امة العرب قبل النبي كانت وثنية على وجه العموم وكان مذهب توحيد الاله يخطر في الاذهان رويداً رويداً وكان المشخصون لهذا الاعتقاد فريق يقال لهم الاحناف بقوا على مذهب ابراهيم (عليه السلام) واما المسيحيون فكانوا فرقا كثيرة كلها تعتقد بمذهب التكشير (تعدد الالهة) وتلقى محمد مذهب اولئك الاحناف بحالة سطحية لكن لما كانت نفس ذلك النبي مفضورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب في وجدانه حتى صار اعتقاداً لم تصل اليه نفس قبله الا قليلا وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي احدث انقلاباً كلياً في النوع البشرى ومن الخطأ ان نبحث عن هذا المبدأ العميم فيضه في غير طريقة الاحناف لان محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مراراً أنبيأً أمياً وهو وصف لم يعارضه فيه احد من

معاصريه ولا شك انه يستحيل على رجل في الشرق ان يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لان حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على ان القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الافطار ولم يكن بمكة قارىء أو كاتب سوى رجل واحد ذكره (جارسين دى تاسى) في كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ كذلك من الخطأ مع معرفة اخلاق الشرقيين ان يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار (السيدة) خديجة (رضى الله عنها) اياه لتاجرها في الشام ولم تكن لتمهد اليه اعمالها ان كان جاهلا غير متعلم فانا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون وهم في الغالب أكثرهم امانة وصدقا

ثبت اذن مما تقدم ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يقرأ كتابا مقدسا ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب اليه (اسكندر دويون) حيث (يقول انه كان يعرف دين اليسوع قراءة وكتابه) نعم ان البحث عن معرفة المصادر التي عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن وبين التوراة الا انه بحث ثانوى اذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة الاخرى لبقى الامر مشكلا كما كان عليه في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الدينى وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحا وجسما ولقد نعلم انه مر بمتعاب كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل ان يخبر برسالته فقد خلقه الله ذات نفس تمحصت للدين ومن أجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة

الاولئان ومذهب تعدد الالهة الذي ابتدعه المسيحيون وكان بغضها متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين اشبه بآبرة في جسمه (صلى الله عليه وسلم) ولكي ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف في جبل حرى وارخى العنان لفكره يجول في بحار التأملات عابداً متهجداً ومضت عليه بهذه الحالة ليال من لياالى هاتيك البقاع التي تملأ النفس اشراحا حتى جاء عنها في لسان العامة ان الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الارض اعجاباً بجمال الليل فيها وشوقاً الى صفاته وجلاله

ولعمري فبم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الاربعين وهو في ريعان الذكاء ومن اولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوة الادراك لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان الا ان يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (الله احد الله أحد) كلمات ردها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاهما لبعدها عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة جاءت في القرآن (لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك ولم يكن له كفواً احد) وكانت مترادفات اللغة العربية تساعد على رقيتها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامى الذى دل عليه ومن تلك الافكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام (لا اله الا الله)

ذلك هو اصل الاعتقاد باله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به

٢ - الاسلام

على غيرهم من القبائل والشعوب اوائك حقاً هم المؤمنون كما يسمون انفسهم بالسنتهم . ولقد يستحيل ان يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبي (صلى الله عليه وسلم) من مطالعته التوراة والانجيل اذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو منافض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطة دفعة واحدة هو اعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته

وأما مسألة الوحي بالقرآن فهي أكثر اشكالا وأكبر تعقيداً لأن الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلاً مرضياً والعقل يحار كيف يتأتى ان تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بانها آيات يعجز فكر نبي الانسان عن الاتيان بمثليها لفظاً ومعنى آيات لما سمعها عقبة ابن ربيعة حار في جمالها وكفى رفيع عبارتها لاقتناع عمر بن الخطاب فأمن برب قائليها وقاضت اعين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن ابي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القميس ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى قال ناقل هذه الرواية (كوزان دي بيرسوفال) فلما كان اليوم الثاني طلب النجاشي جعفر و اشار اليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع ان المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل في أمه مريم ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر ان الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى وبين ما نقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب فنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن) لكن نحن معشر الغربيين لا نسمعنا ان نفقه معاني القرآن كما

هي لمخالفته لافكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الامم عندنا غير انه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب ولقد أصاب (جان جاك روسيو) حيث يقول (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو انه سمع محمداً (صلى الله عليه وسلم) يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الاذن ويؤثر في القلوب والتفت الى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجداً على الارض وناداه أيها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة ولاخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار قال (بولاتقيلير) انى لاعترف بانه من الصعب ان يظن الانسان ولايتحير في أمره ان قوة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصاً وانها تصدر عالية بغير ضعف أبداً وتتجدد رفيهة معجزة اذ تقصر دون تمثيلها رجال الارض وملائكة السماء وقد أشار المؤلف في كتابه الى الآية الآتية

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتربات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين - فان لم يستجيبوا اليكم فاعلموا ان ما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو)

وكيف يعقل ان النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع انها في الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعتملها الا القوم العالمون ولقد أعجب من موسيو (رينارد دوزى) في كتابه تاريخ الاسلام حيث يقول في الصحيفة العشرين بعد المائة (ان في القرآن أغلاطاً نحوية كثيرة وان تلك

الاغلاط. جعلت فيما بعد من جملة قواعد النحو أو مستثنيات من قواعده (واعمري أى مصدر اعتمد عليه ذلك المؤلف فيما ادعى مع اننا لم نعهد كتباً نحوية قبل الاسلام ولو صح وجود شئ منها فلا بد انه كان عزيزاً نادراً وقد شاهدنا ان اناساً وما كان أكثرهم أميين قاموا فى أمة العرب وادعوا النبوة منهم مسيئمة الذى زعم انه قرين محمد أتى بسور سخر العرب منها ولو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الافكار ويأخذ بمجامع القلوب . أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته وهو لا يزال الى يومنا هذا سرا من الاسرار التى تعذر فك طلاسمها وان يسبر غور هذا السر المكنون الا من يصدق بانه منزل من الله اللهم الا اذا اعتمدنا على قول مجدى الديانة المسيحية مما كنا نرتاح اليه ايام شبويتنا وهو يرجع الى ان القرآن تأليف فاتح اراد تأييد سلطته بجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانونا اودعه بعض قواعد الادب والدين واطاف اليه قصص الوقائع العظيمة لتأيد رسالته) وعلى كل حال أى سواء توصلنا الى معرفة حقيقة القرآن أم لا فلا ينكر أحد ان مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل بقطع النظر عن صدق تلك النبوة وعدم صدقها لان النبوة من حيث هى عبارة عن قيام رجل على الناس أمر ربه ويعتقد حقا ان ما يقوله آت من عند الله وهو تعريف اعلم ان المسيحيين لا يقبلونه سواء كانوا من المتكلمين أو الحكماء الباحثين الا اننى ما اردت به التوفيق بينهما بل قصدت به تمهيداً للايضاحات التى اريد ان اقدمها للقراء فى عرض رسالتى

وعلى ما تقدم أقول ان لظهور النبوة سببين مختلفين فاما ان تكون

صادرة عن وحى سماوى أو عن اتقاد فى الذهن واشتداد فى حركة النفس الباطنية والمتأثر بأحد هذين السببين ينفعل به قهراً غير مختار فهو صادق على الحالين وتكون النبوة حقيقية أو كاذبة بحسب المؤثر فيها فان كان الهيا فالاول والا فالثانى ولو رجعنا الى ماوضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين لامكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الاسلام وجز مناباته لم يكن من المبتدعين فمحمد كما قال (أبو الورد) عن انبياء بنى اسرائيل اعتقد ان روحا من الله استولت على لبه فلم يعد يشعر بان له فكراً خاصاً بل انه أوتيه من عند ربه واختفت فى نظره انانيته ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته ومن الصعب ان تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل (عليه السلام) هل كان ذلك فى الحلم أو غيبوبة فى عالم التصورات الالهية على ان معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسئلة لان الصدق حاصل فى كل حال

كذلك لو قال قائل ان القرآن ليس كلام الله بل كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) فلا بد لنا على الحالين من الاعتراف بان تلك الآيات البينات لا تصدر عن مبتدع ابدأً خلافاً للرأى من ذهب الى تكذيب نبوته وامل رأيه من ضيق اللغة التى تلجئنا الى ان نرمى بالكذب نبياً هو فى الحقيقة شخص مليء امانة وصدقاً.

ولقد نعلم ان الصوت الذى كان يسمعه نبي المسلمين شبيه بالصوت الذى ايقظ ايوانس من قبله فقال له (يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) فلما سمع ذلك تلبكاً وتباطأ واستمع على هذا النداء فضعفت صحته واستولى عليه الهلع كرجل يخاف ان يذهب ليه ثم انتهى

به الحال الى ان صدع بامر ربه وجعل يبشر الناس وحصل على شئ من الراحة وان لم ينلها بتمامها لانه كان كثير التألم كما يؤخذ ذلك من سورة هود والقارعة والحاقة

ومن ذلك الحين أخذت شفته تنطلق بالفاظ بعضها أشد قوة وابعد مرمى من بعض والافكار تندفق من فمه على الدوام الى ان يقف لسانه ولا يطعمه الصوت ولا يجد من الالفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الانسان وسما عن ان يترجمه قلم أو لسان وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية فظن بعضهم ان به جنة وهو رأى باطل لانه بدأ رسالته بعد الاربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية وليس من الناس من عرف الناس جميع احواله فى حياته كلها مثل (النبي صلعم) فلقد وصل المحدثون عنه الى انهم كانوا يعدون الشعر الابيض فى لحيته ولو انه كان مريضاً لما أخفى مرضه لان المرض فى مثل تلك الاحوال يعتبر امراً سماوياً عند الشرقيين وليست حالة محمد (صلعم) فى انفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة بل كانت مثل التى قال نبي بنى اسرائيل فى وصفها (لقد شعرت بان قلبى انكسر بين اضلعي وارتعشت منى العظام وصرت كالنشوان لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله واقواله المقدسة)

اذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وايس هو نبي سلاب كما يقول موسيو (سايس) نعم قد نرى تشابه بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع الا ان سببه ميسور المعرفة ذلك ان محمداً كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحت مباح فيما اذا كان مذهبه

صحيحاً أو موضوعاً اتخذته ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هي ولا يمكن
 لانسلم انكار هذه الحقيقة وحينئذ لا عجب اذا تشابهت تلك الكتب في بعض
 المواضع خصوصاً اذا لاحظنا أن القرآن جاء ليعتمدها كما ان (النبي صلى الله عليه
 وسلم) خاتم الانبياء والمرسلين

والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول ان
 دين الانبياء كان كله واحداً فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد وقد
 نزلت ثلاث كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن . والقرآن بالنسبة
 الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور أو ان محمداً بالنظر الى عيسى كعيسى
 بالنظر الى موسى ولكن الامر الذي تهم معرفته هو ان القرآن آخر
 كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن
 ولا نبي بعد محمد (صلعم) ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً اذا تقر بهذا
 لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة
 فمحمد كعيسى قال انه بعث ليعتمده رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من امره
 الابتعاد عن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بانه يعيد على الناس ما نزل
 على الانبياء من قبله وكان يسمع صوتاً من السماء يقول له (انا وحينئذ اليك
 كما أوحينا الى نوح والنبين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق
 ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان وأتينا داوود
 زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله
 موسى تكليمًا رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
 وكان الله عزيزاً حكيمًا) وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا

فَاعْبُدُونِ (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاستلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلمهم يتفكرون) على ان بعض التشبهات لا تحتاج الى مثل هذا التفسير اذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الانبياء من بنى اسرائيل وكان يعبد الله الذى عبده فلا عجب ان تشابهت الفاظ التضمرات وتجانست اصوات الدعاء .

اذن لا يمكن ان ننكر على محمد (صلعم) فى الدور الاول من حياته كمال ايمانه واخلاص صدقه فاما الايمان فلم يترزع مثقال ذرة من قلبه فى الدور الثانى وما أوتيته من النصر كان من شأنه ان يقويه على الايمان لولا ان الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب بل ان ما نسبوه اليه من هذا القبيل لا يؤثر بشئ على سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحاً بل كان كما قال أبو الفداء يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقة مرتقة وكان قنوعاً خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى حياته هذا هو النبي الذى قال عنه المنشدون من النصارى (انه كان منهما يأتى المغيبات فى الحانات) تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى فى بلاد العرب ولكنه لم ينجح الى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً وقد احتقر المال والمعالى وبلغ من السلطان منتهاه ولم يكن له من علامات الامارة والملك سوى قضيب من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله) ولم يكن فيه عيب الا كما خلق

الله الانسان قال (رونان) خلق الانسان ضعيفاً فلا يقوى على احتمال الرسالة الربانية زمنًا طويلاً ومن لم تطل مدة رسالته فهو من البررة المعصومين) ومع ذلك فرونان لا يمتقد بصدق رسالة النبي العربي

على انه لو صح انه كان فيه عيوب اكبر مما نسب اليه لما قدح ذلك في رسالته لان هبة النبوة كمواهب الوحي لا تستلزم حتماً خلواً من اختصاص بها فلقد هني داوود مع بنت صابا ونحن نعلم ان من ذريته المباركة أنبياء بنى اسرائيل وان الله ينزل حكمه آيات تحار فيها الافكار ومهما اجتهدنا في ادراك كل معنى من معانيه فاننا به جاهلون، فلقد وعد ملوك بنى اسرائيل ان يرسل المسيح من اصلاهم ورأينا ان عيسى ولد على غير ما عهدوا

على ان محمداً (صلعم) كان يقول عن نفسه انه يخشى العذاب ويسأل الله الففران وكم من مرة شوهدت علي وجهه علام الملع وما به من هول رسالته عند ما كان يتلو علي الناس آيات الفزع الاكبر

هذا ما كان من صدقه وأمانته في السنين الاولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالامين وأما حاله في بقية مدته بمد ان صار رئيساً سياسياً فالاستدلال عليه ادق وادعى الى طول البحث والتنقيب قال (رينارد دوزي) يكاد ان يكون من المستحيل الجزم بان محمداً كان في آخر حياته يعتقد بصدق رسالته اما في الدور الاول فاعتقاده وصدقته لا شك فيهما والادلة كثيرة من الجانبين ووضع المسئلة على هذه الكيفية هو الذي فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطرفين لرأى رجحه تبع امياله وما يشتهي الا ان الناقد المنصف لا يجب عليه ان يرجح قولاً على آخر بدون

ملاحظة القرائن التي تتبع الاثنيين ولكن الناس كما وصفهم (موسيو مونور) محتاجون الى الايقان والاعتقاد وهم في احتياجهم هذا يميلون الى من يلقي عليهم المسائل كأنها حقيقة ثابتة ويعتقون من ينهاتهم عن الاعتقاد بشيء او نفيه مطلقاً بغير ثبوت ولا دليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقريع غير اني اقول انه بفرض صحة المذهبيين وان صدق النبي في آخر حياته وعدمه سيان في الوضوح والدليل فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة أو القرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التي تزيل كل شبهة علقنا بالفكر لكنه مع ذلك يوصلنا الى الايقان بان من الانبياء من لا يتيسر للباحثين ان يجزموا بشيء في امرهم كأن يؤكّدوا انهم صادقون او انهم جروا في اعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون وما من كاتب ولا باحث يستطيع ان يجزم بان الامبراطور كونستنتان الذي رفعه القسس مكاناً عالياً في المعابد وأختصوه بالمواهب الالهية كان صادقاً بعد انتصاره في قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمداً قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الاحد كما فعل الملك الروماني وايمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام لذلك لم تتغير حميته ولم تفرغ عزمته فقد انتهى كما بدأ ولو انه جال بفكره ساعة من زمانه شك في صدق رسالته لكنني بنصره الدائم مزى الالهة العمة ومؤيداً له في صحة نبوته وصدق رسالته

وفي الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل ان يحكموا بالبدع وهم مخطئون ولقد عانى محمد (صلعم) كثيراً مع بني قومه اذ كانوا منكرين

ولم يأخذهم على غرة منهم بعد ان صاروا مؤمنين نحن لانصدق بما يقولون بل نرى ان قومه كانوا في استعمال امانته من المتطرفين ولئن أعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم فذلك لانه يمز وجود من يحب الحق ولا تلجئه الحوادث الى الاعجام طلباً لتقريره في ذهن قوم جا حدين ان الذين ينكرون صدق محمد في آخر حياته لا يستطيعون ان ينكروا عليه انه بقي الى آخر لحظة منها نبيا رسولا شديد التمسك بذهبه وانه فارق الدنيا مؤقتاً باداء رسالته فلقد اتفق مؤرخو العرب طراً على الحوادث التي تخللت ايامه الاخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغيرهما يبرهن على صدق حديثهم وامانتهم في نقلهم ولولا زيف المنشدين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا (ان محمد قد مات تمشه الخنازير اذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير) تلك جريمة لا تقفروا وما يستغرب له المطالع ان يجد حكاية هذا الموت الفاضح في تاريخ الحرب الصليبية الاولى لمؤلفة (جيبير دى نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون الى التخريف غير انه اتى بهذه الاكذوبة وزاد عليها ان المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فانسدل ثوب النسيان على هذه الافاصيص المحزنة وانقرأ كيفية وفاة النبي في كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواد وخرج الى الحج بمكة في شهر مارس سنة ٦٣٢ ميلادية وهي حجة الوداع وخطب في الناس على منبر المسجد المقدس فقال رب انى أدبت رسالتى وبانت امانتى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) ثم رجع الى المدينة وأقام بيت عائشة
 زوجته المصطفاة برضاء من زوجاته ولما أحس بقرب الاجل ذكر الفقراء
 فانه لم يرغب طول حياته في المال بل كان كلما جمع اليه شيئاً منه انفقه في
 الصدقات وكان اعطى عائشة يسيراً لتحفظه فلما حضره المرض امر بانفاقه
 على المعوزين لساعته وغاب في سنة ولما أفاق سألها ان كانت اتفدت امره
 فاجابته كلا فامر بالنقود و اشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال
 (الآن استراح قلبي فاني كنت أخشى ان ألقى ربي وانا املك هذا المال)
 وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس و آخر يوم خرج
 فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكل على
 الفضل بن العباس وعلي بن ابي طالب وقصد منبر الخطابه الذي كان يعظ
 الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله واثني عليه ثم خطب في المسامير بصوت
 رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال (ايها الذين تسمعون قولي ان كنت
 ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه وان كنت اسأت سمعة
 احد فليذتقم من سمعتي وان كنت سلبت أحداً ماله فاليه مالي يقتص منه
 وهو في حل من غضبي فان الغل بعيد عن قلبي) ثم نزل من المنبر وصلى
 بالجماعة ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من ازاره وطلب منه ثلاثة
 دراهم ديناً له فاداهها على الفور (قائل الخزي الدنيا اهون من خزي الآخرة)
 ثم دعا لمن حارب معه في أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران وكان مشهد
 النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلحون على
 وجهه تأثير السم الذي شربه من يديهودية خبير وقلوبهم منفتحة من الوجد

عليه ذلك انه لما كان في واقعة خيبر قدمت اليه يهودية اسمها زينب شاة مشوية اضافت اليها سما فاخذ منه النبي قطعة واحدة بين شفثيه وأحس بانها مسمومة فالقاها . ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول (مازالت تعاودني اكلة خيبر) وكان أبو بكر نفسه يبكي ويقول للرسول (هلاً افتدينا روحك بارواحنا) ثم اوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولاً وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قد جاء وقت الظهر فاشار الى أبي بكر ليصلي بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبي بكر بعد النبي . واخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت (كانت رأس رسول الله مسندة الى صدرى وبقر به قد رما ، وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول (رب اعنى على تحمل سكرات الموت ادن منى يا جبريل رب اغفر لى واجمع بين اصدقائى فى السماء ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدرى)

أما خلفاته فيبيت بناه بيده وبضع نياق آلت الى بيت المال لانه عليه الصلاة والسلام قال (نحن معاشر الانبياء لانورث)

الى هنا تقصر القول عن ذات النبي فما أردنا ان نطيل فيها لالتعرف حقيقة تلك النفس المتشعبة بالدين اذ الدين يدعو الى الدين وكان من الوجوب دقة البحث عن اعتقاده (صلى الله عليه وسلم) قبل ان نتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر فى الوجود